آراء جون ديوي فى التربية

للأستاذ حسن محمد آدم

توفى أخيراً الفيلسوف الأمريكى جون ديوى John Dewey صاحب الآراء والنظريات المشهورة فى التربية . ومن حق الرجل علينا — نحن المشتغلين بالتربية والتعليم — أن نكشف للناس عن بعض ما لهذا الفيلسوف من فضل على المناهج التربوية الحديثة فى المدارس والمعاهد وبالتالى على الجيل الجديد الذى يتربى فيها فى هذا القرن العشرين

يعتبر جون ديوى صاحب مدرسة وصاحب مذهب فى التربية وله أتباع وأنصار عديدون وآراؤه الفلسفية فى التربية تتميز بأنها عملية ترتبط بواقع الحياة وترمى إلى نفع الإنسانية منفعة مباشرة ، ولهذا أطلق على مذهبه التربوى مذهب البراجماسية. وإذا نظرنا فى هذه الآراء نجد أن ديوى يقرر أول ما يقرر أن « التربية يجب أن تهدف إلى تنظيم اشتراك الفرد فى حياة المجتمع اشتراكا إيجابيا عن وعى وقصد ، كما يجب أن تهدف إلى الإصلاح الاجتماعى الذى لا يتحقق إلا إذا وجهنا نشاط الفرد وتفكيره نحو الاشتراك فى المجتمع حتى يصبح فيه عضوا نافعا منتجا »

وكانت هذه المبادئ التى بدأ يقررها وينادى بها حدثا فى حياة التعليم التى ألفها الناس وعكفوا عليها القرون الطوال . فإن السنة التى كان الناس يجرون عليها فى تربية أبنائهم وتهذيبهم هى إرسالهم إلى المدارس بغية تلقى العلم واكتساب المعرفة عن طريق المربين الذين كانوا يتبعون طريقة واحدة هى طريقة إلقاء المعلومات وتلقينها للأطفال تلقينا نظريا حتى تمتلىء بها أذهانهم وكانت هذه هى الطريقة المثلى لازدياد علمها وخبرة ومعرفة بالحياة

وهاجم ديوى هذه الطريقة التقليدية الجافة وبين مافيها من عقم وأوضح أنها لاتفيد الصغير بخبرات جديدة تحقق الغرض من اكتسابه لها ، لأن موقفه السلبى الذى يتمثل فى مجرد الإنصات والاستماع إلى خبرات الغير من شأنه أن يصرفه فى غالب الأحيان عن الاستفادة ؛ ومن شأنه كذلك أن يكرهه فى مادة الدرس بما تدخله فى نفسه من السآمة والملل ، لأن الأشياء التى يكره على تقبلها لا تتعلق بذات نفسه لافتقادها عنصر التشويق وابتعادها عن ما يوائم ميوله الفطرية ويجارى غرائزه الطبيعية فى هذه السن المبكرة .

هذا فضلاً عن أن انتفاع الطفل بما يتلقاه فى مدرسته فى حياته المنزلية والاجتماعية يكاد يكون مستحيلا لأنه لا يجد ربطا بين حياته فى المدرسة وحياته فى المنزل أو فى المجتمع ، وبذلك تكون التربية التى من هذا النوع عقيمة غير مجدية يصعب عليها أن تمد المجتمع بمواطن صالح واحد

لهذه الاعتبارات كلها رأى « ديوى » أن التربية السليمة هى التى تقوم على أساس من خلق حياة طبيعية للتلميذ فى المدرسة ، مبنية على حاجاته وميوله ونشاطه الذاتى حتى يسمى بنفسه إلى اكتساب الخبرات التى تنمى مداركه وتغذى عقله .. وبذلك ننقل التلميذ من ميدان السلبية والركود إلى ميدان الإيجابية والعمل والنشاط . وبعد أن كان أساس التثقيف فى الميدان الأول التلقين النظرى الذى يأخذ فيه المدرس الجانب الأكبر من النشاط ولا يشارك التلميذ فيه إلا بقدر ضئيل تافه ، أصبح أساسه فى الميدان الثانى التوجيه العملى الذى يندفع فيه التلميذ من تلقاء نفسه بالتعليم ، بادئاً النشاط الأكبر تحت إشراف مدرسه الذى لا تتعدى مهمته أكثر من التوجيه والإرشاد إلى خير السبل لاكتساب المعرفة وتحصيل المعلومات

وخالف « ديوى » رجال التربية التقليدية فى أن هناك أغراضاً ثابتة للتربية لا تتغير بتغير الأحوال والظروف . فكان يرى أن التربية الحقة هى عملية نمو « growth » مستمرة ومتغيرة دائما إلى ما هو أحسن بالنسبة لنوع المجتمع وظروفه ومثله العليا

ولقد فهم كثيرون فلسفة ديوى هذه فهما خاطئا . إذ توهموا أن معنى هذا هو التحلل من البرامج والمناهج التربوية . ولكن ديوى كان ينص دائما على أن عملية النمو التى يقصدها ليست نموا لا ضابط له . بل هى عملية نمو موجهة ومرغوب فيها derirable groth ومعنى هذا أنه لا ينكر المنهج . بل غاية ما يشترطه فيه هو أن يكون مرنا ملائما